بهذه الاسباب، فهي ميتة لا محالة، مهما حاول المصلحون ان يضعوا فيها روح الحياة. لذلك، فالمرآة تدعو دائماً الى نبذ القديم البالي، والأخذ بناضر كل جديد يقود الى الحياة؛ تدعو الى طرح الاوهام والخزعبلات والتقاليد الميتة، والسير وراء العلم الذي لا حياة للامم بدونه.

«يقولون ان ' مرآة الشرق' حكومية، لأنهم لم يصدقوا ان ' مرآة الشرق' أكثر الجرائد انتقاداً للحكومة، ولكنها، في الوقت نفسه، ترى ان السبيل الوحيد لنجاح هذه الامة العربية، هو التفاهم مع الحكومة البريطانية، والتعاون معها في كل ما لا يضرّ بقضية البلاد الاساسية وتقدّمها. فان كان هذا ما يعنونه بحكومية ' مرآة الشرق' ، فـ ' مرآة الشرق' حكومية اذن؛ و' مرآة الشرق' لن تحيد عن هذا المبدأ حتى يتبيّن لها خطأه، فلتنهش الصحف المعارضة ما شاءت؛ ولتشتم ما شاءت؛ لا نجيب على ما تكتب؛ ان لغتها ليست لغتنا، وآدابها ليست آدابنا. ان ما تستعمله من كلمات السبّ والشتم في وسع كل ساقط لئيم ان يأتي بمثله، وبأعظم منه. الصحافة الراقية أرفع من ان تكون مدرسة تتعلّم فيها الخاصة والعامة الكلمات البذيئة المنحطّة السافلة؛ وما الصحافة الّا صورة مصغّرة عن الامة التي تنطق بلسانها؛ فان نطقت بعبارة لطيفة مهذّبة راقية، كانت الأمة كذلك، والّا فلا. وكل جريدة تنطق، بالطبع، عن القوم الذين تمثّلهم، و' مرآة الشرق' لا تمثّل الّا طبقة تربأ بنفسها ان تنحطّ الى مقام الشاتمين اللاعنين. هذه هي خطتنا، وهذا هو مبدأنا»(١٤).

وتميّزت« مرآة الشرق» بمعارضتها للانتداب البريطاني، والهجرة اليهودية الى فلسطين، وبيع الاراضي لليهود، وكان صاحبها، خلال سنوات صدورها، من الفلسطينيين القلائل الذين حذّروا الشعب الفلسطيني من المؤامرة التي تحاك ضدهم. كما تميّز بواقعيته؛ وكان أول صحفي عربي ينادي بسياسة «خذ وطالب». الّا ان هذه الجريدة، في بداية عهدها، قد تميّزت بخروجها على الاتجاه الوطني في البلاد، والتعبير عن سياسة ترمي الى التعاون مع الحكومة، والذي عبّر عنه، فيما بعد، «الحزب الوطني»، الذي شُكل في فلسطين خلال العشرينات. وقد اختفى هذا الحزب بعد سنوات من ظهوره؛ لكن بقيت الصحيفة تعبّر عن ذلك الاتجاه الذي عبّرت عنه احزاب اخرى فيما بعد. وكانت الجريدة، في أيام سلطة الحاج امين الحسيني، واللجنة التنفيذية العربية والمجلس الاسلامي الاعلى، منبراً حرّاً لكل من لم يوافق على السياسة التي اتبعتها تلك المؤسسات. وكانت تعتبر لسان حال المعارضة، ولسان حال «الحزب الوطني»، لأن بولس شحادة كان من أركان «الحزب الوطني» ومؤسسيه، وجريدته من الآلات العاملة في معارضة اللجنة التنفيذية والجمعيات الاسلامية ـ المسيحية، بقصد الوصول الى خطة معتدلة للتفاهم مع الحكومة(١٥).

ونتيجة لهذه السياسة التي سلكها في معالجة العديد من القضايا الوطنية، من جهة، ووقوفه بجانب الاحزاب المعارضة، من جهة أخرى، فقد اتهم، في العديد من الاحيان، بأنه يوالي الانتداب والصهيونية، ووصلت اليه رسائل تهديد بشأن المقالات التهجمية التي كانت تنشر ضد المجلس الاسلامي الاعلى. وهو كتب في هذا المجال:

«... اذا كنّا نفخر لشيء واحد هو ان ' المرآة' لم تحد عن الخطة التي رسمتها منذ صدور العدد الاول منها. قلنا، يومئذٍ، في العدد الثاني من المرآة، ان التفاهم مع الحكومة يجب ان يكون الاساس في سياسة هذه البلاد على مبدأ ' خذ وطالب' . وها قد برهنت الايام صدق نظريتنا وأخذ السواد الاعظم من أبناء هذه الامة يقولون بها ويعملون على تحقيقها، بعد ان رُمي صاحب هذا القول بكل أنواع الافتراءات. ونحن نصرّح، اليوم، بما صرّحنا به قبلاً: ان السياسة المثلى هي التفاهم